جولة في الفردوس

مع الشاعر المبدع ميخائيل نعيمة

للأستاذ ردينى خشبة

« إلى روح أبي العلاء ، بمناسبة أسبوعه في لبنان الصديقة »

استطاع شاعر لبنان المبدع ميخائيل نعيمة أن ينقلنا معه على أجنحته الأثيرية إلى جنته الوارفة الظلال ، التي غرسها خياله الواسع الشاسع العلوى العجيب .

صحبناه فيها ساعة ، بل ساعات ، في مجموعته الشعرية الرقيقة « همس الجفون »[1] التي جمعت طائفة من أشعاره الباهرة الممتعة من نظمه بين سنتى ١٩١٧ و ١٩٣٠ ، بعضها بالعربية وبعضها بالإنجليزية ، مترجماً إلى العربية بالشعر المنثور ، فما راعنا إلا أن نرى شبحين ، أو طيفين بلازماننا في رحلتنا إلى هـذه الجنة العجيبة غُدُوًّا ورواحا . . . أحدهما عن يميننا ، وكان عابساً متجهماً ، منقبض القلب ... كاسف البال ، منطوياً على نفسه ، غائر العينين مظلمهما .. وقد وقف عند الباب فلم يدخل معنا ... ولم ندعه نحن للدخول ، لأننا لم نكن قد دعوناه لاصطحابنا في هذه الرحلة البعيدة المدى ، بل لم نلق بالنا إلى عروجه معنا . أما ثانيهما فكان يدلف عن شمالنا ، وكان هاشاً باشاً ، ضحوكا طروباً . . . تشيع في أعطافه نشوة تشبه الخُمار ، فهو يتثنى ويتمطى ... ونحن ننظر إليه ، ولا نستطيع أن نفهم عنه هـذا التخلّج ولا ذاك الاضطراب . . . فلما انفتح باب الجنة كان أسبقنا إليها دخولا ، وأعرفنا بها مسالك ودروباً . ثم ابتعد عنا وغاب بين الأشجار عن أنظارنا ، وسمعنى شاعر لبنان أردد من شعره ، وقد سمعت نغما ينبعث من أقدام ذاك الطيف :

من ذلك ، بين الأشجار يمشي تخيـــال من نار
هو يضرب عوداً والأشجا ر تُنن لشكوى الأوتار
الزهر يُنكّس تيجـــانه والحور يُلَمْلِم أغصـــانه
والريح تمـــر على أوتار العود فتخنق ألحانه ![1]

فتبسم وقال : هذا النيسابورى عمر الخيام . فقلت : ليته رأى شيئاً كهذا في حياته ، إذن لكان آمن وكفى نفسه شر هـذا الشك الذى باعد بينه وبين هـذا الفردوس ! إنى لأسمعه الآن وهو ينشد :

عدم آخر الوجود ، فصاحى هات راحاً أغدو بها غير صاح
وأدرها ريحانة الأرواح

لست شيئاً بعد الممات فهبنى لست شيئاً قبيله ، واصطحبنى
نقتل الوقت لذةً وانشراحا وخمولاً ونشوةً وانطراحا[2] !

فأرثى له ، لأنه نفى أن يكون شيئا بعد الموت ، وها هو ذا يسعى بروحه بين أيديكم يا معشر الشعراء إلى حيث تذهبون من هذه الجنات التي تغرسونها اليوم ... له الله !.. أين ولى ؟ . . . فقال صاحبي اللبناني : لقد ذهب يلتمس ريحانة الأرواح في ظل تلك الكرمة النائية ، فهلم نذهب إليه ، فقلت : عجبا لك يا صاحبي ! ألا تزال مشوقاً إليه مشغوفاً به ، وأنت من أنت في هـذه الجنة الفيحاء ؟ أليس بحسبك ما ترسّمت خُطاه ، حين قلت في همس جفونك ، من أوراق الخريف :

عودى إلى حضن الثرى وجددى المهـــود
وانسى جمالاً قد ذوى ما كان لن يعود
كم أزهرت سوسانةٌ وكم ذوَتْ وورود
فلا تخافى ما جرى ولا تلومى القـــدرا
فمن أضاع جوهراً يلقـــاه في اللحودْ
عودى إلى حضن الثرى ![3]

وأردت أن أردد من أشعاره ما ردد فيها من معانى النيسابورى عمر الخيام ، لولا أن تجهم قليلاً ، وقال مقاطعاً : لكنك تبدّل بعض الكلمات في شعرى ولا ترويه كما نظمته ... فاعتذرت إليه بأنى إنما أروى الذى علق بالذاكرة ، وقد لا تؤتمن الذاكرة في غالب أمرها

ثم انطلقنا إلى حيث جلس الخيام في ظل كرمة ، وقد وقف أمامه مخلوق عجيب يحاسبه ويشتط عليه في الحساب ...

---

(١) طبعته مكتبة صادر ببيروت طبعاً أنيقا وثمنه ٤٥ قرشا مصريا

(١) همس الجفون ص ٤١ (٢) رباعيات الخيام للبستاني ص ٧٣
(٣) همس الجفون ص ٤٥

فلما سألت صاحبي اللبناني عن هذا المخلوق الأديب المتمكّن ، ذكر لي أنه زُهير بن نُمَيْر ، شيطان ابن شُهيد ، الذي ألهمه رسالته « الزوابع والتوابع » . فقلت له : وما زهير بن نمير في هذه الجنة ، وهو شيطان ! ؟ فتبسم صاحبي ثم قال : لعله ما أوى إلى هذه الجنة إلا ليحاسبني أنا ، لا ليحاسب الخيام ... فامض بنا ، وليكفني الله شره ! فقلت له : وما ذا تخشى منه ؟ إني لأراك تفرق أشد الفرق ! فقال : أخشى منه تحذلقه وتشبثه السخيف بالعربية الصحيحة الفصحى ؟ فقلت : أتعد التشبث بصحة اللغة وفصاحتها سخفاً ؟ ! والله لنشركنه في هذا الأمر إذن ! يا زهير ... يا زهير ... يا زهير بن نمير ... ولم أزل أهتف به حتى شغلته عن الخيام وعمن نحونا . ولم يُحَيِّ ولم يُبَيِّ ، بل عبس عبوسةً مظلمة قاتمة ثم قال : ويحك أيها اللبناني ! أتدع أستاذك وابن جلدتك وفخر بلادك ... دُرة المعرّة أبا العلاء العظيم ، بباب هذه الجنة ، فلا تدعوه ولا تكلمه ، وتترك تلميذه هذا الخراساني ، ينفتل إليها ويعيث فيها ، ويبحث أول ما يبحث عن أمّ عنب فينبطح في ظلها ؟ من علمكم غرس الفراديس والتقلب في أفياء الجنان غير أبي العلاء ؟ وأنت مع ذاك تقول لصاحبك إنك تخشاني وتفرق من محاسبتي لتشبثي الذي تنعته بالسخف ، بالعربية الصحيحة الفصحى ؟ ولكن ، لا والله ... فلن يكون قاضيك إلا ذاك الذي تركته عند باب جنتك دون أن تدعوه إليها ... فعد أدراجك إليه ثم كفر له عن ذنبك ، ويشرفني أن أكون في إثرك مشاركاً في الدعوة عسى أن يغفر لك الشيخ !

ورأيت جبين صاحبي يُقطّب تقطيباً شديداً ؛ وما كاد يخطو خطوة إلى وراء حتى انطوت أرض الفردوس تحت قدميه ، وتحت قدمي ، فكنا عند الباب من قدمنا ، وإذا سيدنا أبو العلاء ينظر إلينا بكلتا عينيه الغائرتين ، وقد رد إليهما الله القدير نورهما ثم يبتسم ... وكنت أسبق إليه من صاحبي بالتحية التي حيانا بأحسن منها . وإذا كان أمر زهير بن نمير عجيباً ، حين عرف ما تحدث به صاحبي ولم يكن معنا ولا قريباً منا ... فقد كان أمر أبي العلاء العظيم أعجب ... لقد هوّن على الشاعر اللبناني المبدع ما قال زهير ، وما عنف عليه به ، ثم أخذ يعاتبه هذا العتب الظريف اللطيف الحلو ، دون أن يدخل الجنة :

ما ذا يا جفيد الأحفاد ، وسليل العُرب النجُب الأمجاد ! فيم ضربك في بيداء الشك وأنت أكبر آية على الحق الذي تبكي من أجله دون أن تهتدي إليه ؟ لماذا تعيش كما عشت من قبلك موزعاً بين الفلسفات والوساوس ، مقسماً بين الظلام والنور ، قلقاً بين الرجاء واليأس ، مضطرباً بين الضلال والإيمان ؟ لشد ما رثيت لك حينما انتهى إليّ قولك :

فإذا ما راح فكري عبثاً ... في صحارى الشك يستجلي البقاء
مر منهوكاً بقلبي فجثا ... تائباً يقتص من قلبي الرجاء
وإذا ما أملي يوماً مشى ... تائهاً في مهمه العيش السحيق
عاد لما كاد يقضي عطشا ... يحتسي الإيمان من قلبي الرقيق
وإذا الإيمان ولي والرجا ... أضحي ضريرا

فليم قلبي إلى أن يُنفخ البوق الأخير !

لقد قلت عني مرة : « وهذا الرجل عينه ، من بعد ألف سنة مرت على انعتاقه من حياته المرة ، يفتح لي ، وللكثير سواي باب منزله على مصراعيه قائلاً : « تفضلوا وادخلوا »[1] وهذا هو الذي يؤلمني ويقض مضجعي في ظلمات قبري يا صديقي العزيز ... فلشد ما يضاعف آلامي أن أكون سبباً في هذه البلبلة التي تملأ خيالك وتجعله شروداً هائماً ، كما تملأ خيال غيرك من الشعراء الذين تأثروا بي ومشوا على دربي وانتهجوا نهجي . لقد كنت أفكر بآلامي ، وكانت الظلمات التي تملأ عيني تتدجى في فؤادي . وكانت زيارتي للاذقية ، ولبثي بديرها ، فتنة لي وعاصفة في إيماني ... ولكن ما بالكم أنتم يا شعراء القرن العشرين ، ومفكري عصور النور والمدنية ، الضاربين بين العالمين القديم والجديد ... ما بالكم تنظرون إلى الدنيا بأعيننا ، وتفكرون فيها بأداة تفكيرنا ؟ لقد تكشفت لكم عن مئات من الأسرار التي كنا نجهلها ، ونقف منها موقف الجدس ، بل موقف التخمين والترجيم ... فلماذا لا تؤمنون ؟ لماذا لا تملأونها نوراً على نور وبهجة على بهجة ؟ ثم ما هذا الذي أسمعك تتغنى به :

لكل اللهم عيني ... بشعاع من ضياك ... كي تراك
في جميع الخلق ، في دود القبور ... في نسور الجو ، في موج البحار

(١) هلال يونيه ١٩٣٨ من مقال الشاعر عن أبي العلاء